دلالة الفطرة

إن أول دليل على وجود الله ـ جل جلاله ـ ليس شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان. إنه الفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها. إنه ذلك الشعور الطبيعي البصير الغامر، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية، كائناً غير محدود ولا متناه، يُهيمن على كل شيء، ويُدبِّر كل أمر يُرْجَى ويُخْشَى، ويُعَظَّم ويُقصَد. شعور ينبع من أعماق الإنسان، ويستمَد من كيانه كله، لا من عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب.

يُعبِّر الفيلسوف الشهير «ديكارت» عن هذا الشعور الفطري فيقول «إني مع شعوري بنقص في ذاتي، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة. وأراني مضطراً إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلِّية بجميع صفات الكمال، وهي الله».

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكي نفساً ، رق حجابه وتفتحت عين بصيرته ، وارتفع عن جاذبية الطين ، وحلّق في أجواء الروح ، وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ، ويغمر كيانه كله ، فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربه ـ سبحانه ـ خارج عن ذاته وكيانه هو ، بل يشعر أن وجود الله أظهر من كل شيء ، بل هو دليل كل شيء ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣).

يروون أن أحد العلماء الصالحين الموقنين قيل له يوماً : إن فلاناً من علماء «الكلام» قد أقام على وجود الله ألف دليل . فقال : لأن في نفسه ألف شبهة !!

وهذا جواب مَنْ وضح الأمر في نفسه بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان . على نحو ما قال الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل !

وسئل بعض العارفين : بِمَ عرفتَ ربَّك ؟ فأجاب : عرفتُ ربي بربي !

ويقول ابن عطاء الله السكندري في هذا المعنى :

« إلهى ؛ كيف يُستدل عليك ، بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المُظهر لك،متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليكَ؟ ومتى بعدتَ حتى تكون الآثار هي التي تُوصِّل إليك»؟ هذا ما نقصده بالفطرة : إن الإنسان ـ سواء أكان جاهلاً أم عالماً ـ لو جرَّد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذى يعيش فيه ، والمذهب الذي ينتمي إليه ، ثم تفكَّر بعد ذلك في الكون وفي نفسه ، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً ، ليجد نفسه ساجداً خاشعاً أمام ربه العلي العظيم ، الرحمن الرحيم [1].

---

(١) لعل هذه الفطرة العاقلة أو العقل الفطري ، هي ما يطلق عليه الأستاذ العقاد « الوعي » ، وفي رأيه أن مسألة وجود الله « وعي » قبل كل شيء : فالإنسان له « وعي » يقيني بوجوده الخاص ، وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعي » يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه ، والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله أو من ظاهره وباطنه ، وما يعيه وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير .

إن الــذي علَّــم الإنســـان أن ١+١=٢ بـــدون بـرهــان ولا مقدمات منطقية هو الذي علَّمـه أن لـه إلهاً لا يستغنى عنه ، بدون حاجة إلى استدلال ، ولا انتقال مـن معلـوم إلى مجهول ، ومن مقدمات إلى نتائج .

هـذا الشعور الفطري قـد يختفـي في ساعات العافية والرخاء والغنى الذي يُطغـي الإنسـان ويحجبـه أحيانـاً عـن رؤية نفسه على حقيقتها ، فإذا نزل بالإنسان شـدائد قـاهرة ، ذاب الطلاء الكـاذب الـذي غشـى الفطـرة الأصـلية ، ورجـع الإنسان إلى ربه ضارعاً داعياً مُنيباً إليه .

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن « الله » فقال لـه : ألم تركب البحر ؟ قال : بلى . قـال : فهـل حـدث لـك مـرة أن هاجت بكم الريح عاصفة ؟ قال : نعم . قال : وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم . قال : فهل خطـر ببالك ، وانقدح في نفسك . أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء ؟ قال : نعم . قال جعفر : فذلك هو « الله » .

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢).

والقرآن الكريم يصوِّر أصالة هذه الفكرة ، وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويراً بليغاً ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسوقها إلى ربها سوقاً حثيثاً ، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها . على أن تؤمن به وتعبده وتوحده . فلنسمع إليه يقول : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣) ؟.

ولما كان هذا الشعور أمراً فطرياً كما تبين لنا ، وجدنا أصل الإيمان قدراً مشتركاً بين جميع الأمم ، وفي مختلف الأقاليم ، وفي شتى عصور التاريخ ، وإن كان الكثيرون قد

انحرفوا عن الإيمان الصحيح ، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدَّرت نقاءه ، وأفسدت جوهره .

يقول الفيلسوف المعروف هنري برجسون « لقد وجدت وتُوجد جماعة إنسانية من غير علوم وفنون وفلسلفات ، ولكن لم تُوجد قط جماعات بدون ديانة ».

ويقول المؤرخ الإغريقي القديم بلوتارك : « لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا مدارس ، ومدن بلا قصور ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد » .

والدارسون لتاريخ الأديان ، يؤكدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغنى عن الإيمان والدين .

يقول الفيلسوف « رينان » في كتابه « تاريخ الأديان » : « إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين . بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنسانى في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية ».

* * *